الإتجاه الدينى فى شعر أحمد شوقى

د . تمساح على أحمد نحيلة
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

فى مطالعتنا لشعر أمير الشعراء أحمد شوقى عنت لنا فى آفاقه عواطف فياضة وأحاسيس متأججة انعكست على هذا النتاج الأدبى الذى ورثته المكتبة الأدبية عن هذا الشاعر المبدع والذى حلق فى هذا الاتجاه ضمن اتجاهات مختلفة ، فأبدع فيه ، وألقى عليه بظلال من روحه وفكره كسته بثياب العزة يتألق فيها ويجيش بداخلها فى مجد وفخار .

ونحن فى بحثنا هذا لسنا بحاجة الى الحديث عن شوقى ، وعن أسرته أو اتجاهاته السياسية ، فهذا أمر أراه قد عنى به الباحثون والكتاب وأمطروه بوابل من التحقيق والتثبيت ، غير أننا نرى هذا الاتجاه الذى نود الحديث فيه بحاجة لوضع خيوط رقيقة كان لها فى توجيه هذا الشاعر نصيب أوفر للحديث عن عواطفه الدينية .

ولعل هذا الأمر يتضح لنا حينما نذكر ما قاله شوقى ضيف عن شعره حيث ذكر ذلك بقوله « تتشابك فى تكوين شاعرية شوقى ، وشخصيته الأدبية عناصر كثيرة ، منها الجنسى ومنها الثقافى ، أما من حيث الجنسى فقد التأمت فيه خمسة عناصر جعلته عربيا كرديا تركيا سركسيا يونانيا ، وازدواج هذه العناصر الجنسية فيه يؤذن

منذ أول الأمر بأنه سيكون شـــاعرا كبيرا ، وخاصـــة أنه يجمع بين الجنسين العربى واليونانى ، اللذين يشـــعران من قـــديم بالشـــعر والشـــاعرية » (١) .

وأيضا فى سير مراحل حياته نتعرف على هذه الاتجاهات التى تأثر بها شعره وجاء بصورة لمـــا عايشه ومر به ، فقد نشأ فى بـــلاط الملك وتربى فى قصر السلطان يحدوه البزخ وتحفه الحسنوات اللاتى تعمل فى البيت الحاكم ، ولهذا عاش مترفا عزيزا لم يكن لديه بعد همة يتوجه اليها الا الحديث عن هذه البيئـــة التى تتفضل عليـــه بألوان السعادة والسرور فكان فى هذه الحقبة عذب المشاعر فياض الأحاسيس خاصة وأنها كانت فى وقت الشباب ونضرة الصبا ، فطبع شعره أو غلب عليه الاتجاه الفنى الذى يساير موكب الحياة التى ينعم بها .

وحينئذ تغيرت الأمور وتبدلت الاحوال ، ويستبعد من كان يحنو عليه وهو عباس ، ويمنع من دخول البلاد وينفى أحمد شـــوقى مع أسرته الى أسبانيا وهنـــالك يحن الى الوطن ، ويطلع عـــلى الآداب الأسبانية فتثرى لديه الموهبة وتقوى عنده الحاسة الشعرية ، ويعود الى مصر مرة أخرى لكن الى مكان آخر وحيـــاة لم تكن هى الحيـــاة الأولى التى نعم بها بجوار عباس ، فمن هنا تزاحمت عـــلى خلـــده الأفكار وتذكر أيامه الخوالى وما سعد به فى وجوده داخل هذه الدار ، والآن وهو يعود اليها بعد أن طرد منها وخلت من الأهل والأحبـــاب لم يكن لديه بد من توجيه قدرته الشعرية الى مواكب الآخرة فأبصر بعـــد ذلك أن كل ما فى الدنيا الى زوال ما عساه أن يفعل فى خصـــم

---

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر شوقى ضيف ص ١٣٠ ، ١٣١ .

هذه الأمواج المتلاطمة وهو الشاعر المحلق الذى منح بالموهبة الفطرية فى قرض الشعر ونظمه .

وكان شاعرنا حصيفا حينما أدرك هذه المعانى التى تخلد ذكره وتثنى عليه بعد رحيله ، وحام بعواطفه حول روضة الحبيب المصطفى ﷺ يعارض المادحين ويزاحم المحبين حتى تسطر له هذه الومضات فى سجل الخالدين ، يتوسل بسيد الأمة أن يمنحه الهدى والرشاد ليهجر الدنيا وما فيها من متاع زائل ويتمسك بالآخرة التى اليها المآل والمرجع .

وكما ذكرنا فاننا لا نتحدث عن الفنون الأدبية التى جال فيها شوقى وأبدع ، ولكن نتحدث عن الوازع الدينى وأوضحنا السبب فى هذا الاتجاه ، وذلك شأن الانسان الذى عاش الدنيا وخبرها وذاق الوان نعيمها فسرعان ما يرى ذلك نعيم زائل لا بقاء له فيلوذ بما هو باق ، فيتمسك بأسباب السعادة فيلوذ بالحبيب الهادى - ﷺ - مسطرا مدائحه فى سمط من الشعر تنشرح له الصدور وتتوق اليه النفوس وسوف نعرض بعضا من هذه الألحان التي تفصح عن نفس ملتاعة فتشوق الى ما هو أبقى لتسعد فى دار البقاء وجنات الخلد والملك الدائم الذى لا يبلى .

فنحن نشعر بارتياح حينما نقرأ مقطوعة من شعره الذى رثى فيه المنفلوطى والحكمة تتأجج من خلال هذا النص فيقول (٢) :

من ضاق بالدنيا فليس حكيمها
ان الحكيم بها رحيب الباع

---

(٢) الشوقيات ص ٧٥ ج ٣ دار الكتب العلمية بيروت .

من شـــوه الدنيـــا اليك فلم تجد
فى الملك غـــير معـــذبين جيـــاع

أبكـــل عين فيـــه أوجـــه تـــرى
لمحـــات دمع أو رســـوم دمـــاع

مـــا هكـــذا الدنيـــا ولكن نقلـــة
دمـــع القـــرير وعـــيرة الملتـــاع

لا الفقر بالعبرات خص ولا الفتى
غـــير الحيـــاة لهن حكم مشـــاع

وفى هذا الاتجاه نلاحظ أن شوقيا كان بعيد النظر فى كنه هـــذه الحياة ، فهو عاركها ، وتعرف على أطوارها ، ومضى بين جنباتها فلذا كان شعره صورة حية تنطق بوقائعها الصادقة التى ينبغى أن يدركهـــا الجميـــع .

وفى غربته يحتسب شوقى هذا الأمر جهادا فى سبيل الله عله أن يتقبله منه فى سبيل الوطن فيقول (٣) .

ألا فى سبيل الله ذاك الدم الغالى
وللمجد ما أبقى من المثل العـــالى

وبعض المنايا همـــه من ورائهـــا
حياة لأقـــوام ودنيـــا لأجيـــال

وهكذا يمضى شوقى فى توجهه الى مولاه حين حلت به الخطوب

---

(٣) الوفيـــات جـ ٣ ص ١٠٠ .

وحين قلب له الدهر ظهر المجن ، وتتضح لك هذه النبرة فى مراثيه التى كان يضمنها عاطفة حزينة ملتاعة تبكى زمانها وما حل بها من نوائب الدهر وصروف الأيام ، فهو الذى يقول فى رثاء أمه (٤) :

ولم أر حكمـا كالمقـادير نـافذا
ولا كلقاء الموت من بينهـا حتمـا

الى حيث أباء الفنى يذهب الفتى
سبيل يدين العـالمون بـه قدمـا

وما العيش الا الجسم فى ظل روحه
ولا الموت الا الروح فارقت الجسما

ولا خلد حتى تملأ الدهر حكمـة
على نزلاء الدهر بعدك أو علمـا

ونرى الروح الدينية واضحة وجلية فى أشعاره التى مدح فيهـا سيد الأنام — ﷺ — حيث النجاة والملاذ الذى تستريح اليه النفس ويطمئن اليه القلب ، وتلك عاطفة لا تأتى من فراغ ، فشـوقى الذى عاش حياته الأولى فى رغد من العيش بين شرفات القصور وفى مواقع السعادة ، وها هى تمر وكأنها لم تكن أو طيف خيال لاح له ثم انصرف فأبصر الدنيا ومتاعها الفانى ، فاتجه بأشعاره يتغنى بها فى محراب التوبة ، ويبحث عن السبب أو الحصن الذى يتوارى فى ظلاله ويتمسك بأهدابه ، فكانت تلك المدائح التى عارض بها أئمة المديح وعلى رأسهم الامام البوصيرى .

---

(٤) الشوقيات جـ ٣ ص ١١٥ .

ولتنظر اليه فى قصيدته الرائعة التى تجلت فيها روح شوقى الإيمانية ، وهى تفصح عن هذا الحب المتأجج فى ثنايا لرسول هذه الأمة ﷺ .

والواضح أن فن المديح له قدرة وعظمة فى نفوس الكثير من الأدباء والنقاد ، فقد بدأ هذا الفن كعب بن زهير فى قصيدته « بانت سعاد » متوسلا بها الى سيد الأمة — ﷺ — وعكف عليها النقاد يتحدثون عن مطلعها وما تهدف اليه ، فأثروها بالبحث والتنقيب ، عن ذكر سعاد فى مقدمتها ، قائلين بين التقليد والرمز ما حلا كل واحد منهم ويذكر ذلك بافاضة الدكتور عبد الحليم حنفى فى كتابه «دراسات أدبية مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية » حيث يذكر ما دفع هذا الشاعر لذلك من عوامل نفسية وأخرى تاريخية .

والرسول — ﷺ — لم ينكر على كعب ما جاء فى هذه القصيدة بل منحه الجائزة وكان العفو .

ومطلع هذه القصيدة التى فتح بها كعب بن زهير باب المديح فى من مدحه مولاه وأثنى عليه .

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم اثرها لم يعد مكبول

وما سعاد غداة البين اذ رحلوا
الا أغن غضيض الطرف مكحول

ويمضى كعب فى مديحه للرسول الأعظم — ﷺ — قائلا :

ان الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

ويأتي امام المادحين ، فينظم بردته فى رسول الله — ﷺ — ويستهلها بقوله :

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق فى الظلماء من اضم

وفى قصيدة أخرى يقول :

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد حا
ل سنا منك دونهم وسناء

وقد أحاط شوقى بهذه المعانى ، وتعرف على أجلها وأجملها ومن هنا ألقى بدلوه فى هذا البحر الزاخر ليحظى بهذا المجد الذى خلد ذكر الامام البوصيرى — رحمه الله — فكانت قصيدته نهج البردة التى أودعها الكثير من المعانى السامية والتى تناسب جلال الممدوح — ﷺ — وما دفعه على ذلك الا الايمان العميق الذى تربع فى قلب شوقى والذى ظهر فى تواضعه حينما نظم نهج البردة ليفصح عن السبب الذى سار به فى هذا الطريق ، وهو ما عنده من حب لرسول الاسلام — ﷺ — وليس تحديا لهذا الزاهد الورع ولهذا يقول :

الله يشهد أنى لا أعارضه
من ذا يعارض صوب العارض العرم

وانما أنا بعض الغابطين ومن
يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

وقد عارض شوقى الامام البوصيرى فى مدائحه التى أنشدها فى رسول الله — ﷺ — ولم يكن ذلك من شوقى الا غبطة كما ذكر فهذا التقى الورع الذى نظم هذه الدرر فى ذكر سيد الوجود — ﷺ — وكذلك سيرا فى هذا الطريق الواضح الذى يأمل من ورائه النجاة فى الدنيا والآخرة ، وفى اعتقادى أن شوقيا لم يكن يجارى الامام البوصيرى من الجهة الفنية التى اهتم بها الأدباء والنقاد ، فلا دافع يوجد لدى شوقى الا التحليق فى سماء المديح النبوى ليجد غذاء لنفسه ومتسعا لروحه بعد أن خبر الحياة وتعرف على جوانبها .

وسنذكر بعض الأبيات من هذه القصيدة التى نظمها شوقى فى مدح الرسول ﷺ على غرار البردة فيقول :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

رمى القضاء بعينى حيدر أسدا
يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

لما رنى حدثتنى النفس قائلة
يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى

جحدتها وكتمت السهم فى كبدى
جرح الأحبة عندى غير ذى ألم

مدحت أسمح ما فى الناس من خلق
اذا رزقت التماس العذر فى الشيم

يـــا لائمى فى هواه والهوى قدر
لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

الى آن يقول :

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل
فى الله يجعلنى فى خير معتصـــم

القى رجائى اذا عـــز المجير على
مفرج الكرب فى الدارين والغمم

اذا خفضـــت جناح الذل أسأله
عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم

اذا تقدم ذو تقـــوى بصـــالحة
قدمت بين يديـــه عبـــرة النـــدم

لزمت باب آمـــير الأنبيـــاء ومن
يمســـك بمفتـــاح باب الله يغتنم

فكل فضـــل واحســـان وعـــارفة
مـــا بين مســـتلم منـــه وملتـــزم

علقت من مدحـــه حبـــلا أعز بـــه
فى يوم لا عز بالأنســـاب واللحم

يزرى قريضى زهيرا حين أمدحه
ولا يقاس الى جودى لدى هرم

محمد صـــفوة البـــارى ورحمتـــه
وبغيـــة الله من خلق ومن نســـم

وصاحب الحوض يوم للرسل سائله
متى الورود ؟ وجبريل الأمين ظمى(*)

لقد استودع شوقى قصيدته عواطف متأججة وأحاسيس مياضة تخبر بهذا الحب العارم الى وسيلته يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ونلاحظ ذلك فى الأبيات التى ذكرناها من هذه القصيدة ، فهو بدأها بما يبدأ به الشعراء فى قصائدهم ويسوق هذا المعنى فى أول بيت لها بأن الذى سباه واستولى على خواطره قد جعل دمه يسيل فى أشهر حرم الله فيها القتال وذلك يوحى بأنه قام برحلة لأداء فريضة الحج وهنالك شاهد مقام الحبيب ، فقيدت نفسه بهذا الغرام وذلك الحب وهذا ما توحى اليه العبارة « فى الأشهر الحرم » .

وكذلك ما نراه من التزامه بباب النجاة ، وذلك يوحى بأنه كان يلوذ بأبواب أخرى ، فوجدها فانية لا هناءة فيها ، وليست دائمة ، ومن هنا بحث عن باب الفوز والسعادة ، فلم يجد الا هذا الباب الذى يغلق على المعاصى ويفتح للطائعين الراغبين فيما هو عند الله من مثوبة وغفران ، ولهذه الأمور تمسك شوقى به حبا فى قاطنيه وأملا فى الفوز والنجاة .

وقد تناول شوقى فى قصيدته أمورا كثيرة عاشها الرسول ﷺ وعرض أمورها على قومه فكذبوه وأعرضوا عنه ولم يؤمن بها الا من فتح الله قلبه للايمان ، وهيأ له أسباب السعادة فذكر من بين ما ذكر الاسراء والمعراج فقال (٥) :

(*) الشوقيات ١٥٠ ، ١٥٢ جـ ١ .
(٥) الشوقيات جـ ١ ص ١٥٥ .

أسرى بك الله ليلا اذ ملائكته
والرسل فى المسجد الأقصى على قدم

لما حضرت به التفوا بسيدهم
كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كل ذى خطر
ومن يفز بحبيب الله يأتمم

جبت السموات أو ما فوقهن بهم
على منورة درية اللجم

ركوبه لك من عز ومن شرف
لا فى الجياد ولا فى الأينق الرسم

مشيئة الخالق البارى وصنعته
وقدرة الله فوق الشك والتهم

وهذا يدلك على القوة الايمانية عند شوقى ويبرهن من خلال ذلك صدقه للحبيب الأعظم — ﷺ — ونحن نشعر بهذه الأحاسيس والانفعالات لدى شوقى ، فليست هى بأقل لديه من ناظم البردة فى قوة المعنى وصدق العاطفة ، التى جعلته يرسم لنا تلك الصورة حين تحيط النجوم بالقمر لتشكل أبهى صورة جمالية فى كبد السماء وأيضا حين يتزاحم الجنود حول العلم الشامخ فى ميادين الجهاد والاستبسال وبذلك يوحى باحتفال الأرض والسماء لهذا الحدث الذى هو بداية لمواكب العز والسعادة للناس أجمعين ، فتلك عواطف وأحاسيس فياضة لرسول الانسانية — ﷺ — يصورها شاعر المديح فى العصر الحديث.

ويختم شوقى قصيدته بهذا الدعاء الذى يزينه بالصلوات على سيد السادات فيقول (٦) :

يا رب صلى وسلم ما أردت عـلى
نزيل عرشك خير الرسـل كلهم

محيى الليالى صـلاة لا يقطعهـا
الا بدمع من الاشـفاق منسـجم

الى أن يقول :

يا رب هبت شـعوب من منيتهـا
واستيقظت أمم من رقدة العـدم

سـعد ونحس وملك أنت مـالكه
تدبل من نعم فيـه ومن نقـم

رأى قضاؤك فينـا رأى حكمتـه
أكـرم بوجهك من قـاض ومنتقم

فالطف لأجل رسـول العالمين بنا
ولا ترد قومـه خسفـا ولا تسم

يا رب أحسنت بدء المسـلمين به
فتمم الفضل وامنح حسـن مختتم

وفى ختام قصيدته يلوح لنا بمطلبه من مولاه متوسـلا بحبيبـه ومصطفاه بأن يعز الاسلام والمسلمين ويأخذ بيدهم الى طريق الصواب

---

(٦) الشـوقيات جـ ١ ص ١٦٠ .

والفوز فى الدارين وأن يحسن لهم خواتم أعمالهم ، ولا يصدر هذا الدعاء الا من قلب مفعم بالايمان استجابة لحديث الرسول — ﷺ — حين ذكر ما معناه « والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ان الصدق فى التعبير قد أحاط بهذه القصيدة ، وان كانت تعارض ما جاء به البوصيرى فى بردته وما له من شرف السبق فى المعانى والأفكار غير اننا نجد شوقيا قد أخذ بعقولنا وحلق بأرواحنا فى أجواء الابداع والشفافية التى سيطرت على نهج البردة ، حتى أنسانا هذه المقارنات وتلك الموازنات فلم تر فيها الا جوانب الابداع وشرف الاتيان بالمعانى ، فكم من موازنات عقدت بين هاتين القصيدتين ، ولكن لا ترى من يقول بكلمة تحط من قدر احداهما ، وما ذلك الا من عمق الايمان الذى يسيطر على قلب الشاعرين العظيمين وما وقر حبهما من حب الرسول الانسانية — ﷺ — .

وفى موكب هذا الايمان العارم لدى شوقى نتطرق للحديث عن قصيدته التى صور فيها موكب الحجيج الى بيت الله وكأنه كان يحدو القوافل ويسوق النوق الى أرض الله وبلاد الرحمن ، حيث الكعبة والبيت الحرام ، فيقول (٧) :

الى عرفات الله يا خير زائر
عليك سلام الله فى عرفات

ويوم تولى وجهة البيت ناضرا
وسيم مجالى البشر والقسمات

---

(٧) الشوقيات جـ ١ ص ٨٢ ، ٨٣ .

على كل أفق بالحجاز ملائك
تزف سجايا الله والبركات

اذا حديت عيش الملوك فانهم
لعيشك فى البيداء خير حداء

لدى الباب جبريل الأمين براحه
رسائل رحمانية النفحات

وفى الكعبة الغراء ركن مرحب
بكعبة قصاد وركن عفاة

وما شئت الميزان ماء وانما
أفاض عليك الأجر والرحمات (٨)

وزمزم تجرى بين عينيك أعينا
من الكوثر المعسول منفجرات (٩)

ويرمون ابليس الرجيم فيصطلى
وشانيك نيرانا من الجمرات (١٠)

يجتبيك طه من مضاجع طهره
ويعلم ما عالجت من عقبات

ويثنى عليك الراشدون بصالح
ورب ثناء من لسان رفات

---

(٨) الميزان : المقصود به ميزان الكعبة أى مصب ماء الطرق فوقها .

(٩) الكوثر : نهر فى الجنة .

(١٠) الشانى : المبغض .

لك الدين يا رب الحجيج جمعتهم
لبيت طهور الساح والعرصات (١١)

أرى الناس أصنافا ومن كل بقعة
اليك انتهوا من غربة وشتات

تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت
لديك ولا الأقدار مختلفات

عنت لك فى الترب المقدس جبهة
يدين لها العاتى من الجبهات

منورة كالبدر شماء كالسها
وتخفض فى حق وعند صلاة (١٢)

وفى ختام قصيدته يتوسل الى الله بالدعاء متوسلا بسيدنا محمد — ﷺ — فيقول :

اذا زرت يا مولاى قبر محمد
وقبلت مثوى الأعظم العطرات

وفاضت مع الدمع العيون مهابة
لأحمد بين الستر والحجرات

وأشرق نور تحت كل ثنية
وضاع أريج تحت كل حصاة

---

(١١) العرصات : البقعة بين الدور ليس فيها بناء .
(١٢) الشماء : المرتفعة . السها : كوكب .

لمظهـــر دين الله فـــوق تنـــوقه
وبـــانى صريح المجد فوق فلاة(١٣)

فقل لرســـول الله يا خير مرســـل
أبثك مـــا نـــدرى من الحسرات

شعوبك فى شرق البـــلاد وغربهـــا
كأصحـــاب كهف فى عميق ثبـــات

بأيمـــانهم نـــوران : ذكر وســـنة
فما بـــالهم فى حـــالك الظلمـــات

وذلك مـــاضى مجدهم وفخارهم
فمـــا ضرهم لو يعلمـــون لآتى ؟

وهذا زمـــان أرضـــه وســـماؤه
مجـــال لمقـــدام كبير حيـــاة

مشى فيه قوم فى السماء وأنشأوا
بوارج فى الأبـــراج ممتنعـــات

فقـــل : رب وفق للعظـــائم آمتى
وزين لهـــا الأفعـــال والعزمـــات

فنحن حينما نراجع هذه القصيدة ندرك بما لا يدع مجالا للشـــك أن الشاعر لديه حاسة ايمانية عالية ، وذلك لتعلقه بأرض الحجاز التى أشرقت فيها شمس الدعوة الاسلامة وقهر على أرضها أصحاب رسول

---

(١٣) تنوقه : الأرض الواسعة بعيدة الأطراف .

الله ﷺ جحافل الشرك وأقام فوق ترابها الرسول الأعظم دولة الاسلام الأولى ودفن فى ثراها الطيب الطاهر سيدنا محمد ﷺ .

فهو يحدثنا عن قدر هذه الأماكن وما فيها من رحمات تتساقط على ضيوف الرحمن والملائكة يزفون لهم البشرى ويلبسونهم ثياب الطهر والنقاء ويقلدونهم بقلائد البهاء والرحمة من الله سبحانه وتعالى ، ويقودهم فى ذلك جبريل عليه السلام يقسم بينهم هذه الأوسمة التى منحها الله لزوار بيته الحرام .

ونراه يردد كثيرا ذكر الرسول الأعظم لمعرفته التامة أن كل عمل مقطوع ما لم يزين بالحديث والثناء على من اصطفاه رب الأرض والسماء ، وهذا يوحى بما لدى الشاعر من حب عميق لسيد الوجود — ﷺ — الذى أقام الدين وأسعد العالم بقدومه وبدل الظلمات نورا والباطل حقا ، ولا نغفل عن ذكر ما لدى الشاعر من هوية جياشة ، فهو شاعر مرهف الأحاسيس ، وكان يعيش فى بيت الحكم وفى مركز السلطة ، يلاحظ أمورها وما يعتريها من أفراح وأتراح تهز وجدانه ويضطرم لها خاطره ، فهو بلا شك لديه فكرة تامة عما أحل بدولة الاسلام وما أصابها من خوار وضعف ، ولذا نراه يعبر عن حياته السياسية بالدعاء لله أن يجمع شمل المسلمين ويوحد كلمة المخلصين ، لأنه لا يصلح أمر هذه الأمة الا بالعظماء الذين ينسون أنفسهم فى الدفاع عن أركان هذا الدين ، فهم أهل للحفاظ على هذه الأمانة والزود عنها بالغالى والنفيس وذلك أمر لا يتوفر لجميع الأفراد ولم يوجد الا عند هؤلاء الشجعان الذين سخرهم الله لنصرة دينه والدفاع عن الأمة الاسلامية والحفاظ على أرضها وسلامة أبنائها .

وفى عاطفة قوية يتحدث الشاعر فى قصيدة أخرى عن الخلافة

الاسلامية وما تعرضت له من ضياع وتمزق لتفصح لنا عن أحاسيسه وما يدور فى خلده من أمور السياسة التى يتحدث عنها بروح دينية فيقول (١٤) :

عادت أغانى العرس رجع نواح
ونعيت بين معالم الأفراح

كفنت فى ليل الزفاف بثوبه
ودفنت عن تبلج الاصباح

شيعت من هلع بعبرة ضاحك
فى كل ناحية وسكرة صالح

نحت عليك مآذن ومنابر
وبكت عليك ممالك ونواح

الهند والهة ومصر حزينة
تبكى عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس
أمحا من الأرض الخلافة ماح

وأتت لك الجمع الجلائل مأتما
فتعمدن فيه مقاعد الأتراح

يا للرجال لحرة موءودة
قتلت بغير جريرة وجناح

---

(١٤) الشوقيات جـ ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

ان الذين آست جـراحك حربهم
فتلتك سلمهم بغـير جـراح

هتكوا بأيديهم ملاءة فخـرهم
موشـية بمواهـب الفتـاح

نزعوا عن الاعناق خـير قـلادة
نضوا عن الاعطاف خـير وشاح

حبيب أني طـول الليـالى دونه
قد طـاح بين عشـيه وصـباح

وعلاقة قصمت عـرى أسـبابها
كانت أبر عـلائق الأرواح

وهكذا يمضى شوقي فى قصيدته يتحدث عن هذا المجد الاسلامى الذى رحل بين صباح ومساء ، ويبتهل الى الله عله يسخر لهذه الأمـة الاسلامية من يأخذ بيدها الى الوحدة وجمـع الصفوف لتقـوى أمام أعدائها وتحافظ على كيانها ، وتحتضن أبناءها .

مع أن شوقيا كان شاعر العصر الا أنه لا يستطيع أن يخفى عاطفته الدينية التى كانت تعتلج بين ضلوعه ويذكر عنه الدكتور شوقى ضيف فيقـول :

« ومد يده الى ينابيع الاسلام ، فاستقى منها قصائد رائعة فى مديح الرسول مثل الميمية التى عارض فيها بردة البوصيرى ، كما تغنى شعره أحيانا بينابيع العروبة ، وكل ذلك معناه أنه كان يريد الانطلاق من قيود القصر وصاحبه والتحليق فى أفاق أوسع وأرحب »(١٥) .

---

(١٥) الادب العربى المعاصر فى مصر دار المعارف شوقى ضيف ص١١٢.

واننا لا نعتد مما يقال عن هذا الشاعر من فتور فى عواطفه الدينية حيث انه ذكر فى قصيدته «رمضان ولى» الحديث عن الخمر وما لها من ملذات فيقول فيها :

رمضان ولى هاتها يا ساقى ... مشتاقة تسعى الى مشتاق
مما كان أكثره على ألافها ... وأقله فى طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها ... ان كان ثم من الذنوب بواقى
بالأمس قد كنا سجينتى طاعة ... واليوم من العيد بالاطلاق
ضحكت الى من السرور ولم تزل ... بنت الكروم كريمة الأعراق
هات اسقينها غير ذات عواقب ... حتى تراع لصحة الصفاق
صرفا مسلطة الشعاع كانما ... من وجنتيك تدار والأحداق
حمراء أو صفراء ان كريمها ... كالغيد كل مليحة بمذاق
وحذار من دمها الذكى تريقه ... يكفيك — يا قاس — دم العشاق
لا تسقنى الا دهاقا اننى ... أسقى بكأس فى الهموم دهاق
لعل سلطان المدامة مخرجى ... من علم لم يحو غير نفاق
وطنى أسفت عليك فى عيد الملا ... وبكيت لله وجد ومن اشفاق
لا عيد لى حتى أراك بأمة ... شماء راوية من الأخلاق
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم ... وبقيت فى خلف بغير خلاق
يتظل بعضهم لبعض خاذلا ... ويقال:شعب فى الحضارة راقى
واذا أراد الله اشقاء القرى ... جعل الهداة بها دعاة شقاق

فالواضح فى هذه القصيدة حسب صورها أن الشاعر كان يتحدث

عن الوطن وما عج فيه من اشكال وألوان لا يرتضيها ولا يحب أن يراها في المجتمع الاسلامي ، وجريا وراء القصيدة العمودية في الشعر العربي بدأها بهذه المقدمة التي كان الشعراء العرب يستفتحون بها قصائدهم على نحو ما فعل حسان بن ثابت في هجائه لأعداء الدين الاسلامي ومدح فيها الرسول ﷺ .

فهذا لا يقلل من قدر الشاعر من الناحية الدينية ، وما جاء مثل هذه القصائد ، قد يكون تقليدا لقدامى الشعراء العرب ومن الثابت أن كل انسان لابد له من هفوات والكمال لله وحده فهو الغفور الرحيم وربمعصية اكسبتك ذلا وانكسارا خير من حسنة اكسبتك عزا واستكبارا فالشاعر كما ذكرنا سالفا بأن حياته كان لها جانبا الأول لاهي حيث تربى في قصر السلطان ومرتع السعادة والسرور والثاني بعد أن تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور ، فلم يجد بعد رحيل محبيه الا أن يوقظ ما لديه من حاسة ايمانية يتطلع بها الى رب رحيم عسى أن يغفر ذلته ويمحو عنه الذي مضى .

ويظهر شوقي قوته وبراعته في قصيدته التي امتدح بها الأزهر منارة الاسلام ودرع الدين فيقول(١٦) :

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر - ان فصلته
في مدحه حرز السماء الثيرا

---

(١٦) الشوقيات ج ١ ص ٨١ .

وأذكره بعد المسجدين تعظما
لمساجد الله الثلاثة مكبرا (١٧)

وأخص منها، وانتقى حق أئمة
طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا

كانوا أجل من الملوك جلالة
وأعز سلطانا وأفخم مظهرا

زمن المخاوف كان فيه جناحهم
حرم الأمان وكان ظلهم الذرا

من كل بحر فى الشريعة زاخر
ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

لا تجذ حذو عصابة مفتونة
يجدون كل شىء قديم منكرا

لو استطاعوا فى المجامع أنكروا
من مات من آبائهم أو عمرا

من كل ماض فى القديم وهدمه
واذا تقدم للبناية قصرا

وأتى الحضارة بالصناعة رثة
والعلم نزرا والبيان مثرثرا

ما معهدا أفنى القرون جداره
وطوى الليالى ركنه والأعصرا

---

(١٧) المساجد الثلاثة : البيت الحرام والأقصى والأزهر .

ومشى على يبس المشـــارف نوره
وأضـــاء أبيض لجهـــا والأحمـــرا

وأتى الزمان عليـــه يحمى ســـنة
ويذود عن نســـك ويمتع مشعرا

فى الفـــاطمين انتحى ينبوعـــه
عذب الأصـــول لجـــدهم متفجرا

فالشاعر لم يهمل الأشياء التى صانت الدين أصوله وحافظت على روافده ، فكان صادق التعبير فى الحديث عن الدين بما يشهد له بقدراته التعبيرية عن خواطره وأحاسيسه وعلى الرغم مما عرف عن شوقى بأنه المجدد لبعض الفنون الأدبية فى شعرنا العربى الحـــديث الا أنه كان حين يتحدث عن البيت الحرام وعن الرسول ﷺ ينفصـــل انفصـــالا ملؤه الايمان الكامن في النفس ، ولا أدل على ذلك من قصيدته هـــذه التي ذكر فيها الأزهر ومكانته بين المساجد الاسلامية الكبرى ، وكذلك في معارضاته لقصائد الشاعر الامام البوصيرى رحمه الله في مدائحـــه لرسول الله ـــ ﷺ ـــ وهنا تظهر كوالن النفس من خـــلال المـــدوح فيفيض من فضله على الصادقين فى مدحه وبهذا نكون ان شاء الله قـــد وفقنا فى وضع هذا الشاعر فى مكانته التى ينبغى أن يوضع فيها ، فهو الشاعر البارع المقلد لقدامى الشعراء العـــرب ، وأمـــير الشعراء فى العصر الحديث وصاحب لواء التجديد فى الشعر العربى الحديث بمـــا استفاد من خبرته وتمرسه على اللغات الأجنبية العديدة التي أكسبته قدرته على اصابة الهـــدف واختراع المعانى فى ثياب أدبيـــة وقوالب شعرية ستظل شاهدا له على نبوغه وتفوقه فى مجال الابداع الأدبى.